الفصل
العاشر

❑ الاجازة والتخاطر ❑
وتنمية الابتكارية

تهدف الاجازة الشعرية إلى اختبار الابتكارية بما تنطوى عليه من طلاقة تعبيرية وحساسية فى استشعار المشكلات التركيبية وتقويمها وذلك بالانتاج الفعلى والخبرة العملية المباشرة. وأساس هذه الطريقة هو التخاطر sumectics حول فكرة منظومة تنطوى على مشكلة تقتضى حلا يتداوله اثنان أو أكثر بطريقة القصف الذهنى. إنها بالأحرى اختبار تجريبى يعتمد على سؤال ضمنى يتحسس به المستجيز ابتكارية المجيز ومدى قدرته على التفكير والتعبير فى سرعة ودقة وفهم، وفى هذا تلتقى الاجازة واللغز، فكلاهما يتضمن سؤالا ليس بالضرورة أن يكون منظوما فى اللغز، وهذا يجعل الاجازة أشد وطأ وأقوم قيلا، لأنه من السهل على الانسان أن يفكر ابتداءا وأن ينظم بنات فكره، أما أن يكمل ارتجالا فكرة غيره، فذلك يرهقه صعودا، ويقتضيه طلاقة تعبيرية لا يلقاها إلا بمجاراة الأول فى رؤيته وأدواته، وطاقته الانفعالية، وفى سياق من المماتنة والتحدى.

اجازة التمليط

وللأجازة عدة أشكال، فقد تكون لغزية فتسمى تمليطا، وقد تكون إعجازية فتسمى مماتنة، وتزيد على الاجازة العادية فى عدد الأشطر إذ على المماتن أن يسترسل، وعلى الآخر أن يتابعه شطرا شطرا بحيث يصير البيت الواحد دولة بينهما وتكون السرعة فى أدائه هى محك الفضل والمزية وإليها يرجع الأمر كله، وممن أشتهر بهذا امرؤ القيس «وكان معنى عريضا ينازع كل من قيل إنه شاعر فنازع التوأم اليشكرى واسمه الحيرث «ويكنى أبا شريح، فقال له: إن كنت شاعرا فملط أنصاف ما أقول وأجزها، فقال: نعم[1] ودارت بينهما إجازة حول بيت ظلا يتقاسمانه على النحو التالى:

---

(١) بدائع البدائه، نفسه، ص ٩٣.

امرؤ القيس: أصاح أريك برقا هب وهنا
التـــــوأم: كـنار مجـوس تستعر استعارا
امرؤ القيس: أرقت لهـا ونـام أبو شريح
التـــــوأم: إذا مـا قلت قد هدأ استطارا
امرؤ القيس: كـأن هزيره بـوزاء غـيب
التـــــوأم: عشـار ولـــه لاقـت عشارا
امرؤ القيس: فلمـا أن رأى كنفى أضـــاح
التـــــوأم: وهـــت أعجاز ريقـه فجارا
امرؤ القيس: فلـم يترك بذات السر ظبيا
التـــــوأم: ولـــم يـترك بجلهتها إحارا

إجازة المماتنة

ومن طرائف المنازعات أن «غلاما من بنى جنب يقال له رفاعة أو المحترش، نبغ فى الشعر وماتن شعراء قومه حتى ظهر عليهم، فلما وثق من نفسه بذلك خرج إلى القبائل، فنزل بصرم من بنى نهد والحى خلوف، فأتى حجرة عن جنب الخباء، فإذا عجوز حيزبون قد أقبلت معتمة تتوكأ على لحمين، فقالت: عم ظلاما، قال: فقلت عم ظلامك وأكرمتنى. فلما أصبحنا وقد أخبرتها بما أتيت فى طلبه أقلبت ومعها ثلاث فتيات كالمهرات، فابتدرن إلى الحجرة، وحيتنى العجوز، وسألتنى عن مبيتى، ثم أومأت إلى أحداهن، فأقبلت كالعيدانة بميلها الصبا، فقالت: أنت المتحدى بالمماتنة؟ فقلت نعم. فقالت: قل». ودارت بينهما هذه الاجازة بيتا بيتا على النحو التالى:

الغلام: ســـوام تداعـت سومها وعجافها
الفـتاة: حوامـل أثقـال تنـــوء فتـرزح
الغلام: إذا مـا أبهت فى حجرتيها رعاؤهـا
الفتـاة: سمـت فرقة منـه شوامـــر نفـــح

الغلام: نـواء تـدانى بالجبيـــن عشارهـا
الفتـة: فتبرح نـــارا أو تبيـــت فتـــــنح
الغلام: إذا وصـلت أرضـا سقته بدرهـــا
الفتـاة: أفاويق رسل محصـة لا تفتـــح
الغلام: إذا أصفحت أخلافها خلت ماجـرى
الفتـاة: على الأرض منه لجـة تتضوضـــح

قال: فقمت إلى راحلتى، فقالت العجوز: رويت أم أحلب لك أخرى؟ فقلت أروتنى الأولى، فخرجت أريد الرجوع إلى قومى، فأبى بى اللجاج إلى قصد ما خرجت إليه، فدفعت إلى شيخ يرعى غنيمات له، فاستقريته، فقام مبادرا إلى قصب له، فاحتلب لى فشربت، ثم قال: ما رمى بك فى هذا القطر؟ فاخبرته، وكتمت ما لاقيت، فكشر وصاح بغلمة يرعون قريبا منه، فأقبل غلام منهم فقال: ادع عشرقة. فما لبث أن أقبلت حورية عجفاء كأنها بغلة خيسفوج حتى وقفت بين يديه، فقال: إن ابن عمك هذا خرج من بلاده يتحدى بالمماتنة: فقالت: فهل عندك شىء؟ فقالت: قل أيها المتحدى وإنها لتقلب عينيها كعينى الأرقم:

فقلت: فما يسرة زرقاء فى ظل صخرة

فقالت: زخيرة عـــزاء الذرا جونة النضد

فتركت ما قصدت له، وقلت إلى جهة أخرى، ووصفت ناقتى فقلت:

فقلت: إذا نشج الحرباء فى رأس عوده
فقالت: وألجام أم الحسل فى مائها الصخد
فقلت: أثارت تنونا بين تحت حجابها
فقالت: هوانك أشباه كرابيه الجلد

قال: فرحت وآليت ألا أماتن أحدا ماعشت[1].

---

(١) نفسه، ٩٣-٩٥.

ومن الملحوظ أن هذا النوع من الاجازة يقوم على التحدى والمماتنة، ولا يقتصر على شطر أو شطرين، فبينما يسترسل المستجيز يجد المجيز نفسه مضطرا إلى التقيد بمضمون الفكرة التى فرضت عليه، والشكل الذى وضع لصياغتها، كما أن التخاطر هنا يتم بطريقة القصف الذهنى إذ مايلبث المماتن أن يرسل خاطرته، حتى ينهض الآخر لإ كما لها، وهذا يقتضى الوعى وشدة اليقظة، والتفطن إلى فكرة المنازع، والرد بما يناسبها.

وإذا كانت المماتنة هنا دولة بين الغلماء والجوارى فبدهى أن يكون المحكمين من العجزة أو الشيوخ بحكم السن والخبرة والنضج الفنى، كما يلاحظ أن الغلمان هنا ليسوا مجرد رعيان لإبل قومهم، ولكنهم طاقة أدبية أعدت جيدا لمجابهة هذه التحديات الحضارية التى تواجه قبيلتهم، فهذا غلام من بنى كذا، يتجاوز حدود قبيلته شاهرا لسانه وبيانه، متحديا أترابا له من قبيلة أخرى.

الإجازة العائلية :

ثمة نوع آخر من الاجازة يقتصر على شطر أو شطرين، ويكون داخل الأسرة حيث يتوحد الابن بأبيه، ويتبنى سماته الشخصية والفنية، وهنا يكون «التوحد» وليس «التقمص» هو الاساس النفسى الذى يتخاطران حوله، حيث يقوم الأب باختبار المهارة التعبيرية لدى طفله، ومدى حساسيته فى استشعار المشكلات التركيبية وحلها فى سرعة ودقة وفهم، بينما يقوم الطفل بالتقاط فكرة أبيه وتبنيها والتكيف بها، ثم مجاراته فى الشكل الذى وضع لصياغتها. هذه الاجازة الاختبارية كانت أبرز طرائق التنشئة داخل البيوتات المتأدبة، حيث نجد زهير بن أبى سلمى يأخذ ابنه كعبا بهذه الطريقة منذ بدت عليه ارهاصات الموهبة وهو «غليم» يرعى إبل قومه. وحدث أن سمع الأب ابنه عشية وهو يرجز:

كأنما أحدو ببهمى عيرا من القرى موقرة شعيرا

فخرج وهو غضبان فأنشد:

وإنى لتعدينى على الهم جسرة تخب بوصال صروم وتعنق

ثم قال: أجز يالكع، ودارت بينهما هذه الاجازة:

كعب : كبنيانة القرئى موضع رحلها وآثار نسعيها من الدفء أبلق
زهير : على لاحب مثل المجرة خلته إذا ما علا نشزا من الأرض مهرق
كعب : منير هداه ليله كنهاره جميع إذا يعلو الحزونة أمرق

وظل الأب يستجيز ابنه، وهو يجيزه حتى انتهيا، فأخذ بيده، وقال: قد أذنت لك فى الشعر[1].

ويروى أن حسان بن ثابت أرق ذاق ليلة فقال:

متاريك أذناب الأمور إذا اعترت أخذنا الفروع واجتنبنا أصولها

ثم أجبل ـ انقطع نفسه ـ فقالت ابنته: يا أبت ألا أجيز عنك؟ قال: وعندك ذاك؟ قالت: نعم. قال فافعلى فقالت:

مقاويل للمعروف خرس عن الخنا كرام يعاطون العشيرة سولها

فحمى الأب وأجابها وأجابته فقال: لا قلت شعرا وأنت حية، قالت: وأؤمنك؟ قال وتفعلين؟ قالت: نعم لا قلت شعرا وأنت حى[2].

لنلحظ أن الطفلة هنا تحاكى نمطا كليا لسلوك أبيها الشخصى والفنى وهذا واضح من المشاكلة اللفظية بين «متاريك ومقاويل» فى الصدر، و«أصولها وسولها» فى القافية، ثم تبنيها خلق أبيها كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والترفع عن الدنيا، ونحو ذلك من القيم الشخصية والفنية، التى تربط الابناء بآبائهم فينسجون على منوالهم بطريقة التوحد والتخاطر والقصف الذهنى.

ودونك مثلا آخر من إجازة بين أب وابنه[3].

---

(١) الاصفهانى، الاغانى، ١٨/٦٣٥٩.

(٢) الجاحظ، الحيوان، ٦/ ٢٣١ نقلا عن أحمد سيد أحمد، شاعر الرسول، دار للسلطنة ص ١٥.

(٣) ابن سعيد الأندلسى، المغرب فى حلى المغرب ١/ ٣٦٨.

الأب: تنق ضفادع الوادى
ابنـــه: بصوت غير معتاد
الأب: كأن ضجيج مقولها
ابنـــه: بنو الملاح فى النادى
الأب: وتصمت مثل: صمتهم
ابنـــه: إذا اجتمعوا على زاد
الأب: فلا غوث للهوف
ابـــنه: ولا غيث لمرتاد

فالتخاطر هنا قائم حول فكرة واحدة كان شطرها عند الأب وشطرها الآخر عند أبنه، وكلا الشطرين لا يلتئم أحدهما دون الآخر إذ يكون قسيمه وملازما له تلازم الفعل ومتعلقه، أو المشبه والمشبه به، أو التابع والمتبوع، أو التشبيه وقيده الاحتراسى، ولهذا عقب الأب قائلا: «أحسنت والله ما منها قسيم إلا وقد أجزته بما وقع عليه خاطرى».

إجازة المؤدبين:

وكما تكون الاجازة بين الأب وأبنائه تكون أيضا بين المؤدب وتلاميذه بهدف الكشف عن مواهبهم قبل اجازتهم وتخريجهم، ورد فى ترجمة أحد الأدباء: «كنت أنا وجماعة من أحداث بغداد ممن يتعاطى الأدب، نختلف إلى مدرك نتعلم منه الشعر، فقال لنا يوما إذا وضعتم الكلمة مع لفقها كنتم شعراء، ثم قال: أجيزوا هذا البيت: «ألا إنما الدنيا متاع غرور» فأجازه كل واحد من الجماعة بشىء لم يرضه فقلت: «وإن عظمت فى أنفس وصدور» فقال: هذا هو الجيد الممتاز[1].

وروى أيضا أن هذا المؤدب دفن قريبا له واستجاز بعض تلاميذه منشدا: «نروح ونغدو كل يوم وليلة» فقال أحدهم: «فحتى متى هذا الرواح مع الغدو»، فقال له لم تصنع شيئا فقال آخر: «فيالك مغدى مرة ورواحا»، فقال: لم تصنع شيئا. فقال آخر: «وعما قليل لا نروح ولا نغدو» فقال: الآن تم البيت[2].

(١) العسكرى، الصناعتين، ١٣٧.
(٢) نفسه.

وروى أيضا أن ابن سعيد الأندلسى صاحب كتاب المغرب اجتمع بالصاحب بهاء الدين زهير، ورغب أن يسلك مسلكه فى الغزل فسأله أن يرشده إلى الطريق الغرامى فقال البهاء: طالع ديوان الحاجرى والتلعفرى، وأكثر المطالعة فيهما، وراجعنى بعد ذلك. فغاب عنه مدة وأكثر من مطالعته الديوانين إلى أن حفظ غالبهما، ثم اجتمع بعد ذلك، وتذاكر فى الغراميات، فأنشده البهاء فى غضون المحاضرة: «يابان وادى الأجرع»، وقال اشتهى أن تكمل لى هذا المطلع، ففكر قليلا وقال: «سقيت غيث الأدمع» فقال: والله حسن، ولكن الأقرب إلى الطريق الغرامى أن تقول: هل ملت من طرب معى[1].

الأجازة الأميرية:

وثمة نوع آخر من الاجازات يجريه الأمراء أنفسهم بهدف التسلية واختبار الموهبة البيانية لدى من يتأهلون لبلاطهم ويتشرفون بصحبتهم ومجالستهم ويكون التخاطر بينهم حول مثير يبعث الأمير على القول ويطلب من أحدهم أن يجيزه ومن طرائف ذلك أن المعتمد بن عباد أرسل إلى إبن حمديس، وأجلسه مجلسا وثيرا وقال له: افتح الطاق التى تليك، ففتحها فإذا بكور زجاج على بعد والنار تلوح من بابيه، وواقده يفتحهما تارة، ويسدهما تارة أخرى، ثم رام سد أحدهما، وفتح الآخر، ثم تركه يتأملهما مدة ثم دارت بينهما الاجازة التالية:

المعتمد: انظرهما فى الظلام قد نجما
ابن حمديس: كما رنا فى الدجنة الأسد
المعتمد: يفتح عينيه ثم يطبقها
ابن حمديس: فعل امرئ فى جفونه رمد
المعتمد: فابتذه الدهر نور واحدة
ابن حمديس: وهل نجا من صروفه أحد

---

(١) المقرى، نفح الطيب، ٥/ ١٤٢.

فاستحسن المعتمد ذلك، وأمر له بجائزة سنية وألزمه خدمته[1].

وورد أيضا أن المعتمد ركب فى حشد من الشعراء، وسابق فجاء فرسه سابقا بين البساتين، فرأى شجرة تين قد أينعت فيها ثمرة، فسدد إليها عصا فأصابها، وتثبتت فى أعلاها، فأطربه ذلك فالتفت لابن جامع وقال مستجيزا إياه: «كأنها فوق العصا» فقال ابن جامع: «هامة زنجى عصا»، فزاد طرب المعتمد، وسروره بحسن ارتجاله، وأمر له بجائزة سنية[2].

وورد أيضا أنه اصطحب جماعة من الشعراء فى نزهة نهرية، واستجازهم شطرا له فعجزوا، فأجازته على البديهة جارية فأعجب بها، فاشتراها وتزوجها، وتلك هى اعتماد الرميكية التى أنجبت لهذا الأمير ملوكا حكموا الأندلس[3].

ومن هذه الاجازات ما دار بين أبى بكر بن القبطرنة وأبى العباس بن سارة وقد جلسا يستجليان جمال الطبيعة فى يوم مطير[3]:

ابن سارة: هذى الطبيعة كاعب أبرارها	حلل الربيع وحليها النوار
ابن القبطرنه: وكأن هذا الجو فيها عاشق	قد شفه التعذيب والاصرار
ابن سارة: وإذا شكى فى البرق قلب خافق	وإذا بكى فدموعه الامطار
ابن القبطرنه: من أجل ذلة ذا وعزة هذه	يبكى الغمام ويضحك النوار

وثمة نوع من الاجازات الاختبارية يجرى لذوى المهن كالصباغين والقصابين ونحوهم. كما حدث من ابن عمار مع ابن جامع الصباغ حين أراد أن يختبر سرعة خاطره، فأخرج زنده ويده بيضاء من غير سوء، وأشار إليها وقال: «كم بين زند وزند» فقال الصباغ: «ما بين وصل وصد»[4]، ويروى أن أبن عمار دخل على يحى القصاب السرقسطى، ولحم الخرفان بين يديه، فأشار أبن عمار إلى اللحم وقال: «لحم سباط الخرفان مهزول» فقال القصاب يقول للمفلسين: مه زولوا»[5].

---

(١) نفسه.

(٢) نفسه، ص ٩٥.

(٣) نفح الطيب ١٤/٤٢٨.

(٤) نفسه ٥/١٤٢-١٤٣.

(٥) نفسه.

الإجازة التزييلية:

وثمة نوع من الاجازات يسمى «الاجازة التزييلية» حيث يبادر المختبر ببيت ويطلب من واحد أو أكثر أن يضيف إليه بمثله أو يزيد، كما صنع أبو محمد غانم عندما قال له عتيق المغنى المهدوى: «إنى أحفظ بيتا فلعلك تزيله وهو:

يا نائب الوجه عن شمس الضحى غسقا والبدر لو كلفوه ذاك لم ينب

فأجازه بديهة :

فى غرة الملك العالى ومنظره بدر يعطل نور السبعة الشهب
ترى محياه فى ليل فيخبرنا عن الحقيقة أن الشمس لم تغب[1]

وقد يكون التزييل بثلاثة أبيات كما حدث فى بيت ابن المعتز:

وهل يزيل البين محتال إن غدت للبين أجمال

فقد زيله الشاعران المذكوران بثلاثة تقول:

إنما العالى أمام هـدى حليت عصـــره الحال
ملك إقبـال دولتـــه كذوى الأفهـام إقبـال
قل لمن أكدت مطالبه راحتاه الجـــاه والمال[2]

وكما يقع التزييل على بيت فقد يقع أيضًا على شطر بيت ومن ذلك إجازة ابن شهيد شطرا ذكره له الخياط معرضا بلثغته ورمده وهو: «مرض الجفون ولثغة فى المنطق» وقد حاول الحاضرون أن يجيزوه فقال لهم ابن شهيد: لستم المقصودين وأخذ القلم وكتب بديهة يجيز الشطر المذكور:

..... سيان جرا عشق من لم يعشق
من لى بألثغ لا يزال حديثه يذكى على الاكباد جمرة محرق
يبنى الكلام لسانه فكأنه مـــن خمـــر عينيـــه سقى
لا ينعش الألفاظ من عثراتها ولو أنها كتبت له فى مهرق[3]

(١) ابن بسام، الزخيرة فى محاسن الجزيرة، مجلد ٢، ص ٣٥١.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه، ١ مجلد ١، ص ٢٦١.

وكما يكون التزييل خارجيا يدور بين شاعر وآخر فقد يكون أيضا داخليا يصدر من شاعر على أبيات له، . كما حدث من أحدهم فى مجلس أنس عندما غنى له هذا الشعر:

بدا فكأنـــه قمـــــر　　على أزراه طلعـــــا
يفت المسك عن نبق الـ　　جبين بنانه ولعـــــا
وقد خلعت عليه الرا　　ح من أثوابه خلعـــا

فرغب إليه بعض الحاضرين تزييلها فقال:

فأهدى مـن حماستـه　　إلى أبصارنا بدعـــا
فلمـا فـت أكبدنـــا　　وحاز قلوبنا رجعـــا
ففاضت أعين أسفـا　　وفاضت أنفس جزعـا[1]

❑ ❑ ❑

(١) قلائد العقيان، ص ١٢٥ والشاعر هو أبو بكر أحمد بن رحيم.